

سورة الكهف (الآيات: 17 - 18)

5

٥

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف حال الفتية في الكهف وعجائب قدرة الله فيهم.
- 2- أن أدرك مظاهر عناية الله بأصحاب الكهف.
- 3- أن أوقن بموعد الله بحفظ من حفظه وإكرام من لاذَّ به.

تمهيد

بعد أن تناولت الآيات السابقة تفصيل حال أصحاب الكهف، وبيَّنت سبب خروجهم وفرارهم، ومنة الله عليهم بهدايتهم والربط على قلوبهم وتوليهم بالحفظ والرعاية، شرعت هاتان الآيتان في بيان عجائب قدرة الله في قصتهم، وتوضيح مظاهر إكرام الله وعنايته بهم.

فما هي عجائب قدرة الله في قصتهم؟ وما مظاهر عناية الله بهم؟ وما أهم اللطائف والقيم المستنبطة من الآيات؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا خَلَعَتْ تَرَاوِرَعًا فَوْقَ الْعِمَامِ وَاتَّيَمَّتْ الْيَمِينُ وَاتَّخَذَتِ تَفْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكَ تَفْقَهُمْ وَمَنْ يُضِلِّ قَلْبَ اللَّهِ فَمَا لَهُ وَليَا مُرْشِدًا ۚ ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ رِّجْلَيْهِ بَاسِطٌ لِّوَالِجْهَتِهِمْ عَالِيَهُمْ

لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ مِرَارًا وَلَمَلَّيْتُ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴿١٨﴾ [الكهف: 17-18]

الفهم

الشرح:

لَمَلَّيْتُ: جهة وناحية.

قَبُولًا: متسع وفضاء.

وَلِيًّا: حليفاً ونصيراً.

استخلاص مضامين الآيات:

- ما مظاهر عناية الله بأصحاب الكهف؟

التفسير

اشتمل هذا الدرس على ما يأتي:

أولاً: من عجائب قدرة الله تعالى في قصة أصحاب الكهف:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا خَلَّتْ تَرْوَارَكَ فَبِعِزِّمْ...﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو قوله تعالى: ﴿تَرْوَارَكَ﴾ بتشديد الزاي وإدغام التاء «تَرْوَار»، وقرأ الكوفيون: عاصم وحمزة والكسائي «تَرْوَار» بتخفيف الزاي بتقدير تتراور فحذفت إحدى التاءين، وقرأ ابن عامر «تَرْوَرُ» في وزن «تَحَمَّرُ»، وقرأ الجحدري وأبو رجاء «تَرْوَارُ» بألف بعد الواو. وحذفت الألف في قراءة ﴿تَرْوَارُ﴾ هو حذف إشارة لقراءة «تَرْوَرُ». ومعنى اللفظة على كل هذا التصريف تعدل وتروغ وتميل.

وقوله: ﴿تَفْرِضُهُمْ﴾، قرأ الجمهور «تقرضهم» بالتاء، وفرقة «يقرضهم» بالياء، أي: الكهف، كأنه من القرض وهو القطع، أي: يقطعهم الكهف بظله من ضوء الشمس. والمعنى على قراءة الجمهور أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبتة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه، فيتأولون

«تقرضهم» بمعنى تتركهم، أي: كأنها عنده تقطع كل ما لا تتأله عن نفسها. وأما من قرأها بالتاء فتأول أنها كانت بالعشي تتأله، فكأنها «تقرضهم» أي: تقتطعهم مما لا تتأله، وقالوا: كان في مسها لهم بالعشي صلاح لأجسامهم. والعرب تقول: قرضت موضع كذا أي: قطعته، ومنه أقرضني درهماً أي: اقطعه لي من مالك.

وقوله: ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ و﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ يحتمل أن يريد ذات يمين الكهف بأن نقدر باب الكهف بمثابة وجه إنسان فإن الشمس تجيء منه أول النهار عن يمين، وآخره عن شمال، ويحتمل أن يريد ذات يمين الشمس وذات شمالها، بأن نقدر الشعاع الممتد منها إلى الكهف بمثابة وجه إنسان، والوجه الأول أصح.

وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله تعالى دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي قَبُولِ مَنَّةٍ﴾، «الفجوة» المتسع، وجمعها فُجَى، قال قتادة: في فضاء منه. وقال ابن جبير: في مكان داخل.

قال الطبري رحمه الله: «معنى الكلام: وترى الشمس إذا طلعت تعدل عن كهفهم، فتطلع عليه من ذات اليمين، لئلا تصيب الفتية، لأنها لو طلعت عليهم قُبَالَهُمْ لأحرقتهم وثيابهم، أو أشحبتهم، وإذا غربت تتركهم بذات الشمال، فلا تصيبهم». [جامع البيان: 9 / 211].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الإشارة إلى الأمر بجملته والقصة بأكملها، حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، وسخر لهم الشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم. أو هو إشارة إلى أقرب مذكور، وهو خصوص ازورار الشمس عن كهفهم. أي: كان صنيعه لهم وعنايته بهم بخرق النواميس ومخالفة القوانين الكونية آية من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته.

ثانياً: الهداية من الله تعالى:

قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَهُ قَبُولٌ مَّجْدٌ لَهُ، وَلِيَّامْرَأَتِهِ﴾ معناه: أن يسأل العباد الهداية منه، وأن يلهمهم سبل الرشاد، ويجنبهم سبل الشقاوة؛ لأن ذلك بيده وهو المالك له.

ونظير هذه الآية في كتاب الله آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿مَرْيَسًا لِلَّهِ يُضِلُّهُ وَمَرِيَشًا يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 40].

وجملة ﴿مَرْيَسًا لِلَّهِ يَضِلُّهُ﴾ جملة شرطية، وفعل الشرط ﴿يَضِلُّهُ﴾ مجزوم بحذف الياء من آخره نيابة عن السكون، وقوله: ﴿يَضِلُّهُ﴾ جملة اسمية وهي جواب الشرط في محل جزم. وفي قوله تعالى: ﴿يَضِلُّهُ﴾ تعريف الطرفين: المبتدأ والخبر، وهو يؤذن بالحصار، و«أل» في ﴿يَضِلُّهُ﴾ هي «أل» الكمالية، وهي التي تفيد الكمال في الصفة، وربما سماها بعضهم «الاستغراقية».

والوقف على كلمة ﴿يَضِلُّهُ﴾ في هذا الموضع بالكهف وفي سورة الإسراء يكون بحذف الياء وإسكان الدال؛ لأن ياءه غير ثابتة في مرسوم الإمام، وإنما تلحق رقيقة حمراء بعد الدال، لذا توضع علامة الوقف على الدال لأن الوقف عليه، بخلاف ﴿يَضِلُّهُ﴾ في سورة الأعراف فإن ياءه مرسومة ثابتة في المصحف الإمام، فتكتب غليظة بالسواد، ويوقف على الكلمة بالياء، لذا توضع علامة الوقف فيها على الياء.

ثالثاً: مظاهر عناية الله بأصحاب الكهف:

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْسِبُهُمْ أَيَّامًا ضَالَّةً وَلَهُمْ رُفُودٌ﴾، بيان لعناية الله بفتية الكهف، وهي حفظه لأبصارهم من التلف، فظلت سليمة طوال هذه المدة لم يطرأ عليها شيء من التغير أو الضرر بفعل الزمن وعوامل التغير، حتى إن الناظر إليهم ليحسبهم في حالة يقظة تامة.

وقوله: ﴿وَنَحْسِبُهُمْ﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي بكسر السين، وقرأه الشامي وعاصم وحمزة بفتحها، وهو القياس، والكسر أفصح، وهما لغتان صحيحتان شائعتان.

و﴿أَيَّامًا ضَالَّةً﴾ جمع يَقْظُ بكسر القاف وضمها كعضد وأعضاء، وقد يجمع على يَقْظَانِ أيضاً، قاله الأخفش وأبو عبيدة والزجاج، وهو المنتبه من نومه، و﴿رُفُودٌ﴾ أي: نائمون، وهو مصدر سمي به المفعول كما يقال: ركوع وقعود وسجود، يوصف الجمع بالمصدر. قال الرازي رحمه الله: «ومن قال: إنه جمع راقِدٍ فقد أبعد؛ لأنه لم يجمع فاعل على فُعول». [مفاتيح الغيب: 21 / 101-102]. وبين قوله: ﴿أَيَّامًا ضَالَّةً﴾ و﴿رُفُودٌ﴾، وقوله: ﴿الْيَمِينِ﴾ و﴿الشِّمَالِ﴾ طباق.

قال أهل التفسير: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون، فلذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً. قال ابن عطية: ويحتمل أن يحسب الرائي ذلك لشدة الحفظ الذي كان عليهم وقلة التغير، وذلك أن الغالب على النوم أن يكون لهم استرخاء وهيئات تقتضي النوم، ورب نائم على أحوال لم يتغير عن حالة اليقظة، فيحسبه الرائي يقظان وإن كان مسدود العينين».

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْلُبُهُمْ نَائَاتٍ أَلْيَمِيَّ وَنَائَاتٍ أَلْشَّمَالِ﴾، قرأ الجمهور «ونقلبهم» بنون العظمة، وقرأ الحسن «ونقلبهم» بالتاء المفتوحة وضم اللام والباء، وهو مصدر مرفوع بالابتداء، قاله أبو حاتم، وحكى ابن جني القراءة عن الحسن بفتح التاء وضم اللام وفتح الباء، وقال: هذا نصب بفعل مقدر كأنه قال: وترى أو تشاهد تقلبهم، ورأت فرقة أن القلب هو الذي من أجله كان الرائي يحسبهم أيقاظاً، وهذا وإن كان القلب لمن صادف رؤيته دليلاً على ذلك، فإن ألفاظ الآية لم تسفّه إلا خبراً مستأنفاً. وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: لو مستهم الشمس لأحرقتهم، ولولا التقلب لأكلتهم الأرض.

قال ابن عطية رحمه الله: وآية الله في نومهم هذه المدة الطويلة، وحياتهم دون تغذٍّ أذهب في الغرابة من حفظهم مع مس الشمس ولزوم الأرض... وظاهر كلام المفسرين أن التقلب كان بأمر الله وفعل ملائكته، ويحتمل أن يكون ذلك بإقدار الله إياهم على ذلك وهم في غمرة النوم لا ينتبهون، كما يعتري كثيرا من النوم؛ لأن القوم لم يكونوا موتى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَلِيسٌ ذِرَاعِيٍّ بِالْوَصِيدِ﴾، في قوله: ﴿بَلِيسٌ ذِرَاعِيٍّ﴾ إعمال لاسم الفاعل، وهو بمعنى الماضي لأنها حكاية حال، ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب.

وأكثر المفسرين على أنه كلب حقيقة كان لصيد أحدهم فيما روي، وقيل: كان لراع مرؤا عليه فصحبهم وكلبه. أما قول من زعم أنه كان رجلاً سمي بهذا الاسم فبعيد، قال ابن عطية: وهذا القول يضعفه بسط الذراعين، فإنهما في العرف من صفة الكلب حقيقة.

و﴿بِالْوَصِيدِ﴾ الفناء، قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير، أي: فناء الكهف، والجمع وصائد ووُصد. وقيل: الباب. وقيل: موضع العتبة. والباب الموصد هو المغلق.

وقوله تعالى: ﴿لَوِ احْتَلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ يمكن حمله بلاغة على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ويمكن حمله على التجريد، وهو الخطاب لغير معين، وهو كثير في كلام العرب وشعرهم، ويمكن أن يكون استصحاباً لخطاب النبي صلى الله عليه

وسلم في أول القصة: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾..

و﴿فَرَارًا﴾ منصوب على المصدر - مفعول مطلق - ؛ لأن معنى وليت: فررت. ﴿وَلَمْ يَلَيْتُ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾، قرأ الحرَميان - نافع وابن كثير - بتثقيل اللام من ﴿وَلَمْ يَلَيْتُ﴾ على المبالغة، وقرأ الباقر بتخفيفها. وقرأ ابن عامر والكسائي من السبعة بضم العين في «رُغْبًا»، وسكَّنَها الباقر، وهما لغتان. ونَصَبُهُ على التمييز.

وقالت فرقة: إنما حَفَّهم هذا الرعب لطول شعورهم وأظفارهم، ذكره المهدي والزجاج، وهذا قول بعيد، ولو كانت حالهم هكذا لم يقولوا: ﴿لَيْسْتَ أَيُّومًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وإنما الصحيح في أمرهم أن الله - عز وجل - حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يَبَلَّ لهم ثوبٌ، ولا تغيرت صفةٌ، ولا أنكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهمٌ، ولرؤي ذلك.

رابعاً: لطائف وفوائد:

- من جميل ما يستنبط من قصة أهل الكهف في هذا المقطع ما نقله ابن عطية عن والده - رحمهما الله - حيث قال: «حدثني أبي - رضي الله عنه - قال: سمعت أبا الفضل الجوهري... يقول: إن من أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم، كلبَّ أحبَّ أهل فضل وصحبهم، فذكره الله في محكم تنزيله» قال القرطبي معقبا بعد نقله هذا الكلام عن ابن عطية: «قلت: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصالحاء والأولياء، حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه - جل وعلا - فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسليةٌ وأنسٌ للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خيرٍ آل». [تفسير القرطبي: 10 / 372]. وفي ذلك إشارة إلى فضل صحبة الأخيار، والنيل من بركة مجالستهم، وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم». [صحيح البخاري: كتاب الدعوات - باب فضل ذكر الله عز وجل، حديث 6407]. ولذلك كان أصحاب المصطفى ﷺ خيرَ جيلٍ وأشرفَ رَعِيلٍ بعد النبيين؛ بما نالوه من بركة صحبة سيد الخلق أجمعين، عليه أزكى الصلاة والتسليم.

- الإيمان باسم الله تعالى «القدير»، وتدبر تجلياته في قصة أصحاب الكهف يزيد المؤمن يقينا وطمأنينة وثقة في تدبير الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

التقويم

- 1- ما القراءات الواردة في كلمة «تَرْوُز»، وما علة حذف الألف فيها رسماً؟
- 2- ما العلة التي ذكرها المفسرون للفرار والرعب الحاصلين لمن يطلع على أصحاب الكهف؟
- 3- أذكرُ ثلاثة مظاهر لعناية الله بأصحاب الكهف.
- 4- أبينُ في بضعة أسطر فوائد مصاحبة الأخيار.

الاستثمار

قال الامام الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره: «اعلم أن مدار القول بإثبات البعث والقيامة على أصول ثلاثة. أحدها: أنه تعالى قادر على كل الممكنات. والثاني: أنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات. وثالثها: أن كل ما كان ممكن الحصول في بعض الأوقات كان ممكن الحصول في سائر الأوقات. فإذا ثبتت هذه الأصول الثلاثة ثبت القول بإمكان البعث والقيامة». [تفسير الرازي: ج 21 ص 454]

- أتأمل كلام الإمام الرازي رحمه الله وأجيب عن الآتي:
- 1- ما وجه الربط بين كلامه وقصة أصحاب الكهف؟
 - 2- اشتملت السور الثلاث: الإسراء والكهف ومريم على أمثلة يمكن تعزيز كلام الرازي بها، أوضِّح ذلك.

الإعداد القبلي

- أراجع تفسير الآيتين: 19 - 20 من سورة الكهف وأجيب عن الآتي:
- 1- ما نوع اللام في قوله تعالى: ﴿لَيَسْأَلُنَّ﴾؟
 - 2- ما القراءات الواردة في قوله: ﴿بِوَرَفِكُمْ﴾ مستدلاً عليها من متن الشاطبية؟
 - 3- أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: ﴿بِوَرَفِكُمْ﴾ - ﴿لَيَسْأَلُنَّ﴾ - ﴿أَرْبَا﴾ - ﴿يَخْضَعُونَ﴾.